

تدبير القرآن في رمضان اليوم رقم 17

بسم الله الرحمن الرحيم

اليوم سنتحدث عن مرحلة ما بعد معركة بدر، والتي نزلت فيها أربع سور، هي: الأنفال، الحديد، التغابن، والطلاق. وسورة الأنفال تصف لنا بدقة ما حدث في الليلة التي سبقت المعركة وبداية يوم المعركة قبل نشوب القتال وأثناء المعركة وما انتهت إليه والنتائج التي ترتبت عليها. فالأنفال تمثل سجل يوثق لتلك المعركة الحاسمة في تاريخ الإسلام والمسلمين، إلا أن المسلمين صُرفوا وأبعدوا عن هذا السجل، واتبعوا ما تملي الشياطين على ملك العباسيين وتشويهم لما حدث. ثم نزلت سورة الحديد، فالتغابن، اللتان تتحدثان عن قحط أصاب المدينة وتسبب بتوقف الكثير عن الإنفاق خشية إملاق. يلي ذلك سورة الطلاق التي تنوعد في آخر آياتها من يخالف أوامر الله والرسول ولا ينفق.

سورة الأنفال – معركة بدر

نزلت مباشرة بعد هزيمة مشركي قريش في بدر على أيدي المسلمين، وكل السورة تتحدث عن تلك الغزوة وما حدث فيها. وأسلوب القرآن فريد من نوعه ويختلف عن أسلوب الكتابة في عصرنا، فنحن لو أردنا الحديث عما حدث في غزوة بدر مثلاً، فسنبدأ باستعداد المسلمين للمعركة ثم بسير المعركة ثم كيف انتهت وما بعد ذلك. لكن لو تمعنا في السورة فسنجد أنها لا تتقيد بهذا الترتيب، بل تبدأ الحديث عن كيفية تقسيم الغنائم، التي غنمها المسلمون من المعركة. يلي ذلك الآيات 2-4 والتي تتحدث بوجوب طاعة الله وإتباع أوامره، وكأن لا علاقة لها بالحديث عن بدر.

والآيتان 5-6 تشير إلى أن هناك بعض المسلمين كرهوا الهجرة من مكة.

ثم يأتي الحديث عما حدث في بدر في الآيات 7-14.

ثم تحذر الآيات 15-19 من الهرب من المعركة وتحث على الصبر على القتال.

ثم تذكر الآيات 20-29 أن هناك خلافاً وقع بين فريقين من المسلمين.

والآية 30 تبين بعض خطط قريش ضد الرسول عندما كان في مكة.

والآيات 31-40 تتحدث عن مواقف قريش من الدعوة في مكة ومنعهم المسلمين من الحرم.

والآية 41 تعود لبيان تقسيم الغنائم الذي ذكرته في الآية الأولى.

والآيات 42-44 تكمل للحديث الذي ذكر في الآيات 7-14.

والآية 45 تقول أن بعض المسلمين حدثته نفسه بالهرب من المعركة.

الآيات 46-48 تعود للحديث عن الخلاف المذكور في الآيات 20-29.

الآية 49 ذكر للمنافقين.

الآيات 50-55 ما الذي ينتظر قتلى المشركين في بدر.

الآيات 56-63 ذكر لمعاهدات بين المسلمين وقريش.

الآيات 64-66 تحريض للمسلمين على الصبر في القتال، وكأن المعركة لم تنتهي بعد.

الآيات 67-71 حديث عن قانون الأسرى في حروب المسلمين.

الآية 72 تخبرنا السورة أن هناك مسلمون بقوا في مكة ولم يهاجروا، استمرار لما ذكر في الآيتين 5-6.

وتختم السورة مع الآيات 73-75 التي تذكر فضائل المهاجرين المتقين والأنصار.

وفي نظر القارئ العادي فكأن السورة تتحدث عن مواضيع كثيرة من بينها بعض المواضيع عن غزوة بدر، والباقي مواضيع لا علاقة لها بالغزوة.

لكن المتدبر للسورة يجد أن كل ما تتحدث عنه آيات الأنفال له علاقة مباشرة أو غير مباشرة ببدر، ولم تتحدث السورة عن أي مواضيع أخرى. فهي بحق سورة غزوة بدر. وكل ما نحتاجه لتبين ما أخبرتنا به السورة هو فهم أسلوب القرآن، ومعرفة كيف يمكن ربط الأحداث بتسلسل زمني.

ولأن القراء الآن أصبحوا أكثر ألفة بأساليب القرآن، وبإمكانهم متابعة الأحداث بالترتيب الزمني وتسلسل الأحداث وليس بالضرورة ترتيب الآيات، فقد نخرج قليلاً عن تسلسل الآيات لتتبع الأحداث.

والبداية مع:

• الأنفال وتوزيعها

معركة بدر أول حرب يخوضها المسلمون في تاريخهم، وهي المواجهة الحربية الأولى مع قريش. وقد انتصر فيها المسلمون، وقتلوا عدداً كبيراً من كبراء قريش، واسروا عدداً آخر، واستولوا على أسلاب وغنائم كثيرة.

وغنائم الحرب لها قيمة عالية عند الناس في ذلك الزمان، لأنها عادة ما تكون عبارة عن سيوف ودروع وعتاد حربي يعز تواجد بكثرة بين أيدي سكان جزيرة العرب، لأنها في الغالب لا تصنع محلياً، بل تأتي من الهند وغيرها. لذا فهي قليلة وغالية الثمن. والحروب في الجاهلية لها قوانينها المتعارف عليها في اقتسام الغنائم بين أفراد الجيش المنتصر، وتنص تلك القوانين على أن كل من قتل محارباً من العدو فله سلبه، أي ملابسه وسلاحه ومركبه إن كان راكباً. أما بقية الغنائم التي

يتركها العدو خلفه بعد هزيمته فهذه هي الأنفال، وكان زعيم القبيلة هو من يقوم بتوزيعها، حسبما يرى.

ولأن بدر أول حرب يخوضها المسلمون في الإسلام، فقد كان أول اهتماماتهم فيما لو انتصروا على عدوهم، هو كيف سيتم تقسيم الأنفال. أما الأسلاب فستذهب لمن حصل عليها، كما كان متبعاً في الجاهلية. فنزلت الآية تقول: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} {1}.

ومعنى أن تصرف الأنفال لله، أي يصرف منها للنفقات التي تدفعها دولة الإسلام. ومعنى أن تصرف للرسول أي يؤخذ منها ما يقيم قوت الرسول اليومي، لأنه لا دخل له ولا عمل، حيث يقضي كل وقته في الدعوة، ويحتاج للإنفاق على مصروفاته وأهل بيته.

ولأن النفس البشرية ضعيفة فقد يتساءل البعض كيف لنا أن نعرف ما يقسم لدولة الإسلام وما يعطى الرسول؟

أو هل يمكن للرسول أن يأخذ كيفما يشاء من الأنفال دون محاسبة؟

لذا جاءت آية أخرى في السورة توضح هذا الأمر:

{وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} {41}.

فإنه له خمس الأنفال. أي أن الخمس يخصص لمصروفات دولة الإسلام، وأهمها في تلك الفترة تسليح الجيش وتجهيزه. والباقي يصرف للرسول والمحتاجين الذين أمر الله أن يعطوا من الإنفاق وهم: المحتاج من ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، وينسب متساوية. أي أن الرسول يأخذ ما يأخذه المحتاج لا أكثر.

وصرف الأنفال كما ورد في الآية لن يعجب البعض من القادرين وغير المحتاجين، الذين يرغبون في قسم منها لأنفسهم، متناسين أنهم يستطيعون العمل والصرف على أنفسهم وأهلهم، بينما رسول الله لا يستطيع العمل أو احتراف حرفة تعيله وأهله، لأنه مكلف بإشغال وقته كله للدعوة، مما جعله في وضع مشابه للمساكين وابن السبيل وبقية المحتاجين.

ولن يتقبل حكم القرآن في الأنفال إلا من يؤمن بالله حقاً: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} {2} الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ} {3} أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ} {4}.

والمؤمنون حقاً ليس فقط رضوا بحكم الله في الأنفال بل وينفقون من أموالهم في كل المجالات التي تحتاجها دولة الإسلام والمجالات التي أمر بها القرآن، ويطعمون الصلاة وكل أوامر الدين. بينما الذين يطالبون بجزء من الأنفال يتباطئون في الإنفاق، وقد لا يقيمون كل أوامر الدين، وهم من تحدثت عنهم سورة الصف ومحمد والنساء والبقرة وغيرها من السور، والذين أعلنوا إسلامهم ولم يؤمنوا.

● مسلمة قريش لم يرغبوا قتال مشركي قريش
{كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ} {5} يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ} {6}.

الآيات تكشف لنا صورة أخرى من مواقف مسلمة قريش زمن رسول الله، الذين والوا مشركي قريش في مكة، وعندما نزلت آيات الهجرة، وبدأ الرسول يحث الناس على الخروج من مكة، دخل أولئك الناس مع الرسول في نقاش حاد في محاولة لثنيه عن الهجرة. ونظروا للهجرة على أنها مساوية لتنفيذ حكم الإعدام فيهم، وليس على أنها مرحلة صعبة لكنها ضرورية في سبيل الله وإعلاء كلمة الحق.

هؤلاء الذين كان بينهم وبين المسلمين من العبيد والموالي مشاحنات مستمرة، وتسببوا بمشاكل كثيرة ذكر بعضها وسنأتي على بعضها الآخر.

وسورة الصف السابقة، والتي نزلت قبيل وقوع معركة بدر، أخبرتنا أنهم لم يرغبوا في حرب قريش الذين يوالونهم، وكانوا يطلبون من الرسول الدخول في مناقشات مع قريش بدل حربهم: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ} {33} إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ} {34} فَلَا تَهْنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتَرَكَمُ أَعْمَالَكُمْ} {35}.

وسورة الأنفال تؤكد عدم رغبتهم في قتال مشركي قريش، وتقول أنهم ذهبوا لبدر وهم غير راغبين في القتال ويمنون أنفسهم بالحصول على الغنائم دون خوض الحرب: {وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ} {7} لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ} {8}.

● في الطريق إلى المعركة
تروي الآيات أن المسلمين وهم متجهون لميدان المعركة كانوا يتضرعون لله أن ينصرهم، وكانوا قلقين، فأنزل الله سكينته عليهم: {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِآلِفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ} {9}.

ولم يمد الله المسلمين بمخلوقات حية تقاتل فعلياً معهم، ولكنه كان مدداً معنوياً وسكينة تشعرهم بالراحة وتذهب عنهم القلق ورهبة المعركة، وهو ما تبينه الآية التالية: {وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} {10}.

وكان المدد المعنوي مؤثراً بالفعل لدرجة أن عدداً من المسلمين غلبه النعاس وهو ينتظر بدء المعركة، مما يعني أنهم كانوا في حالة نفسية مسترخية تماماً، خالية من الخوف والقلق: {إِذْ يُغَشِّيكُمُ النَّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ} {11}.

كما نزل المطر عليهم في تلك اللحظة، مما زادهم ارتياحاً نفسياً: {.... وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ} {11}.

** نزول المطر في الناطق الصحراوية يشعر الناس بالحبور والراحة النفسية، بعكس نزوله في المناطق المطيرة حيث ينزعج الناس.

• في ميدان المعركة

تورد السورة وصفاً لميدان المعركة قبل نشوب القتال، وأين تواجد جيش المسلمين وجيش الكفار: {إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدُوِّ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدُوِّ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتِلَافِئُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ} {42}.

لقد تمركز المسلمون على تل مرتفع من الأرض (عدوة)، وتمركز العدو على تل آخر مقابل له. لكن جيش المسلمين كان على مرتفع يعلوا المكان الذي تمركز فيه المشركون، مما أعطاهم أفضلية إستراتيجية هامة لكسب الحرب، لم يخطط لها المسلمون مسبقاً، ولكنها حدثت بالصدفة المباركة. وهو ما يخالف ما ذكرته كتب السير والحديث والتفسير من أن ((رسول الله سار ليبارد قريش، إلى ماء بدر، فلما جاء أدنى ماء من بدر نزل عليه، فقال الحباب بن المنذر بن الجموح: يا رسول الله، منزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتعاده، ولا نقصر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ فقال رسول الله: "بل هو الرأي والحرب والمكيدة"، قال الحباب: يا رسول الله، ليس بمنزل، ولكن انهض حتى تجعل القلب كلها من وراء ظهره، ثم غور كل قليب بها إلا قليلاً واحداً، ثم احفر عليه حوضاً، فنقاتل القوم ونشرب ولا يشربون، حتى يحكم الله بيننا وبينهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "قد أشرت بالرأي"، (فعل ذلك)) انتهى ما ذكره ابن إسحاق في سيرته. والقصة مختلفة لأنها تخالف الآية السابقة التي تقول أن نزول جيش المسلمين لم يكن نتيجة تخطيط لا من الحباب ولا من غيره ولكنه صدفة فقط.

وعندما التقى الجمعان قبل نشوب المعركة، كان المسلمون بمعنويات مرتفعة، لدرجة كانوا يرون جيش العدو أقل مما هو في الحقيقة، كما أن المشركين كانوا يرون جيش المسلمين قليلاً العدد، كما هو بالفعل. وهو ما شجعهم على أن يقدموا على الحرب ويقتل عدد من كبرائهم، وتحل بهم الهزيمة. ولو تخيلوا جيش المسلمين بعدد كبير، فقد يتراجعون عن الحرب قبل نشوبها: {وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّفَقُّتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ} {44}.

وقبل بدء المعركة قامت الملائكة بإحلال الطمأنينة والراحة النفسية في نفوس المسلمين: {إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَتَبَيَّنُوا الَّذِينَ آمَنُوا} {12}.

وفي مقابل ذلك قامت الملائكة بزرع الرعب والخوف والقلق في نفوس الكافرين: {..... سَأَلَقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبَ} {12}.

فأصبح الوضع ملائماً لانتصار المسلمين الذين ما عليهم سوى ضرب أعناق المشركين المنهارين معنوياً: {..... فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ} {12}.

كل هذا لأجل أن ينصر الله المؤمنين ويهلك الكافرين على شقاقهم لله ورسوله وحربهم لدينه والمسلمين، وكل من حارب الدين فمصيره الهلاك في الدنيا وعذاب الآخرة يوم القيامة: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} {13} {ذَلِكَ فَذَوْقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ} {14}.

ونتوقف هنا قليلاً لنتحدث عن الوضع قبل نشوب القتال، حيث تحدثنا السورة عن بعض أوضاع المسلمين، كما يلي:

1. بعض المسلمين حدث نفسه بالهرب: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} {45}.

2. قبل المعركة كان هناك خلاف حول الكيفية التي تدار بها العمليات، وتداخلت الآراء ولم يعد الكثير منهم يستمع لتوجيهات الرسول: {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} {46} {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ} {47} {وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَآتِ الْفِتْنَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ} {48}.

وهذه الآيات تحذر المسلمين من تكرار التضارب في الآراء أثناء المعارك، وأنه يجب على كل المحاربين الاستماع والطاعة لأوامر الرسول وتنفيذها. فالمعركة يجب أن تسير بمرويات قائد

واحد، ولو تعددت الآراء وتضاربت الأوامر فسيؤدي ذلك للخسارة وانتصار العدو. وقد وقع ما حذرت منه الآيات هنا، في غزوة أحد القادمة، وتسبب بهزيمة جيش المسلمين، كما سنرى. وفي الليلة السابقة للمعركة، رأى الرسول رؤيا وكأن جيش المسلمين قد اصطف مقابل جيش المشركين في ميدان المعركة. وكان جيش العدو هزياً قليلاً العدد. وكعادة الناس في ذلك الوقت، قص الرسول رؤياه على أصحابه. وكان لها تأثير سحري في رفع معنويات الرسول والمسلمين، إذ قد يكون الناس ظنوا أن رؤيا الرسول ليست كرويا أحدهم، ولا بد أن جيش قريش قليل بالفعل: {إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشَلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} {43}.

ورؤيا الرسول كأي رؤيا لأي شخص، ولا يمكن أن تصور الحقيقة. فقد رأى جيش المشركين أقل عدداً مما هم عليه بالفعل، مما يعني أن الحلم الذي رآه يصور ما يتمناه الرسول وشغل باله قبل المعركة، ولا يصور حقيقة عدد جيش المشركين.

ولابد من التذكير أن المعركة لم تحدث بسبب طمع المسلمين بقافلة قرشية قادمة من الشام، كما رسخت كتب السير والتاريخ التي دونتها قريش. ولكنها حدثت بسبب إصرار قريش على ملاحقة المسلمين، وهو ما بينته سور المرحلتين الأولى والثانية من مراحل أحداث المدينة، التي تحت المسلمين على الاستعداد للمعركة التي كانت مرتقبة قبل شهر، لأن الأخبار تواترت بأن مشركي مكة عازمون على مهاجمة المسلمين في بيوتهم. ولما تأكد خروج جيش قريش من مكة متجهاً للمدينة مع الطريق المعروفة التي تربط بين القريتين، قرر المسلمون ملاقة قريش بعيداً عن مساكنهم وعائلاتهم. فخرج الرسول والمسلمون سالكين الطريق الدولية المؤدية إلى مكة وهم يعلمون أنهم سيتقابلون مع قريش في نقطة ما. وبالفعل التقى الجيشان بالقرب من أبار بدر التي يستقي منها عابروا الطريق الدولية، وهناك دارت المعركة. ولم تكن خيول وجمال قريش تحمل المؤن ولكن السيوف والدروع.

• انقلاب الموازين

في بدر اشتبك المسلمون مع مشركي قريش في أهم معركة في التاريخ. إذ أن نتيجتها تحدد بقاء الإسلام وميلاد أول دولة إسلامية، أو زوال الإسلام من سطح الأرض وإبادة المسلمين.

وفي ذلك اليوم، وخلال وقت قياسي قصير، ألحق جيش المسلمين الضعيف والقليل العدد، بجيش مشركي قريش، القوي في كل شيء، إلا في المعنويات، هزيمة أليمة، لم تتعافى منها قريش أبداً. لقد سحقت كبرياء قريش، التي قدمت للمدينة بصورة السيد الذي سيعقاب عبده (المسلمين) الأبق. وكانت تشعر بأنها ليس فقط تتفوق عدداً وتسليحاً، بل أنها تتفوق نفسياً وبدون مقارنة. لأن كثير

من المسلمين عبارة عن عبيد سابقين وموالي مستضعفين اعتادوا الخنوع وعدم القدرة على الوقوف في وجه السيد (قريش). لذا لم يخطر على بال أكثر المتشائمين من قريش أن تحل الهزيمة بهم على أيدي عبيد الأمس ومستضعفي مكة ويثرب. لكن جرأة المسلمين في القتال نتيجة معنوياتهم المرتفعة - والتي لم تتوقعها قريش - أدت لانتهيار معنويات المشركين، ولم يفيقوا من الصدمة إلا ومن بقي منهم يهرولون فارين بأرواحهم قبل أن تتخطفها سيوف بلال وعمار وخباب وابن مسعود، تاركين وراءهم عتادهم وركابهم وجثث قتلاهم.

وقد قتل عدد كبير جداً من سادة قريش - بالنسبة لمجموعهم العام - تقول كتب السير والأخبار أنه بلغ سبعين رجلاً من خيرة كبراء مكة. والهزيمة انطوت على أكثر من خسارة الرجال والعتاد، فقد أحدثت في نفسيات قريش جرحاً غائراً، لم يندمل مع الأيام. واستمر ينزف تبعات هدت جسد أهل مكة حتى أنهكته، وأجبرت كبراءها على استسلام مهين لمستضعفيها وعبيدها السابقين بعد وقت قصير من هذه المعركة.

أما المسلمون فقد مثلت بدر مولد جديد لدولة الإسلام التي ولدت ضعيفة هزيلة في المدينة بعد الهجرة، وذلك قبل أشهر من هذه المعركة، وهاهي تولد من جديد بروح معنوية وثقة عالية لأفرادها الذين خلعوا أردان الذل وتذوقوا للمرة الأولى ثوب العزة والتمكين.

ولم يعد مقبولاً الآن من المسلمين التفكير بالتردد في قتال العدو، أو التراخي عن القتال أو الهرب من المعركة، كما كان حالهم قبل بدر: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ} {15} وَمَنْ يُولُوهُمْ يُؤْمِنُ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} {16}.

وقتل الكفار لم يأت لأن المسلمين أرادوا ذلك ورغبوا فيه. فقد حدثتنا سور سابقة عن وضع بعض المسلمين قبل بدر وكيف كانوا لا يرغبون في الحرب، لكن الله جل شأنه مهلك الكافرين الذين يحاربون دينه، كسنة مرت على كل الأمم، وهلاك كبراء قريش وقادة الصد عن الدين وحرب المسلمين، جاء علي أيدي المسلمين. فقتلهم كان لمشينة الله، وما سيوف المسلمين إلا أداة لتنفيذ هلاك الكبراء. كما أن الزلازل والبراكين أداة لهلاك قوم لوط، والطوفان أداة لهلاك قوم نوح: {فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} {17} ذَلِكَمُ وَأَنَّ اللَّهَ مُوْهِنٌ كَيْدِ الْكَافِرِينَ} {18}.

ثم تتوجه الآيات بالخطاب لقريش قائلة: {إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ} {19}.

لقد قدمتم للمدينة للقضاء على المسلمين، كفتح ونصر لكم، كنتم تظنون أنه في متناول أيديكم دون عناء. لكن الفتح والنصر تحول للمسلمين عليكم، ولم تغن عنكم قوتكم ولن تغني عنكم مستقبلاً في صراعكم مع المسلمين. والخيار الأفضل لكم هو أن تنتهوا عن حرب المسلمين ومطاردتهم وصد غيركم عن الإسلام. وإن غلبت عليكم شقاوتكم وعدتم لحرب المسلمين فسيكون ذلك وبالاً عليكم. وانقلبت الموازين بالفعل، بعد المعركة. فأصبح المسلمون في موقف القوة وأصبحت قريش في موقف أضعف. وقد نقص عدد كبراء قريش بشكل ظاهر بسبب من قتل منهم، بينما كان عدد المسلمين يزيد كل يوم، وسرعان ما ستجد قريش نفسها هي الجانب الأضعف عدداً وعتاداً ومعنويات.

ثم تخاطب السورة فئة من المسلمين الذين كان لهم موقف متخاذل من الحرب، وتحدثت عنهم السور السابقة: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ {20} وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ {21} إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ {22} وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ {23} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ {24} وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ {25} وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ {26} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ {27} وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ {28} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْقَوْا اللَّهَ يَجْعَلَ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ {29}.

وهذه الفئة هم "مسلمة قريش" الذين لا يستمعون لأوامر الرسول. وتذكرهم الآية 26 ببداية الإسلام في مكة عندما كانوا مع بقية المسلمين قلة مستضعفين خائفين، وتقرن ذلك بحال المسلمين اليوم (بعد بدر)، وما هم عليه من عزة. وكون هذه الفئة توالي مشركي قريش معللين ذلك بصلات القربى وهو غير مقبول عند الله: {لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ {22} المجادلة.

ثم تتجه السورة بالحديث عن قريش التي يواليها مسلمة قريش، وبعض ما فعلته بالمسلمين قبل الهجرة: وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ {30}.

لقد خططوا لفتنة محمد أو قتله أو على الأقل طرده من مكة. وتظهر السورة ردة فعل قريش عندما كان الرسول يتلوا عليهم القرآن: وَإِذَا تُلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ {31}.

وكانوا يسخرون من وعيد القرآن لهم بعذاب جهنم: وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ {32}.

وتقول السورة أنه لم يكن وارداً أن يعذبهم الله وأنت كنت بينهم، ولن يعذبهم لو آمنوا واستغفروا: وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ {33}.

لكن عذابهم وارد بعد خروجك من مكة وهجرة المسلمين: وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَائُهُ إِلَّا الْمُتَفَقُونَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ {34}.

والآيتان السابقتان فهما وكأنهما تناقض. فالقرآن يقول لن يعذبهم ثم يقول سيعذبهم. وهذا يظهر أن من قال بذلك غريب على أسلوب القرآن، فليس فيما قاله القرآن أي غرابة.

وتواصل السورة قائلة: وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءٌ وَتَصْدِيَةٌ فَذُقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ {35}.

فقريش بدأت تصلي عند المسجد صلاة مختلفة لكي تقول للناس أنهم هم من يؤمن بالله ويخدم بيته وأن محمد هو المبتدع والضال، وذلك لكي تصد الناس الذين كانوا يقدمون لمكة عن مساع الرسول والاتصال به. فمكاء تعني خداع، وتصديه من صد الناس، ومن أجل ذلك توعدتهم الآية بالعذاب.

وليس كما أولها المفسرون أن مكاء تعني: صفيراً، وتصديه تعني: تصفيقاً. ومع أن لي المعنى مضحك وواضح، إلا أننا كالعادة تلقيناه بالقبول كونه جزء من الموروث، ونبذنا كلام الله الواضح وراء ظهورنا.

● ما بعد المعركة

بعد نهاية المعركة تتوجه الآيات لقريش لتقول أنها أنفقت لحرب المسلمين وتسلمت وكل هذا ذهب خسارة عليهم، وسيذهب خسارة في كل مرة يحاربون المسلمين، وسيغلبون: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا

إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ {36} لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ {37}.

ثم تقول السورة: {قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُهُ الْأُولِينَ {38}.

وإن لم تنتهي قريش واستمرت في عدائها للمسلمين فيجب على المسلمين قتالهم بكل قسوة: {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ {39} وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعَمَ الْمَوْلَى وَنِعَمَ النَّصِيرُ {40}.

وتعود السورة لتفصل كيف توزع الغنائم (الأنفال) التي بدأت به السورة وذكرته مجملاً، وهي تفصله هنا: {وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {41}.

وقد تحدثنا في الأعلى عن الآيات التالية:

إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتِلَافْتُمْ فِي الْمِيْعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ {42} إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ {43} وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّفَقُّتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ {44} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ {45} وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ {46} وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ {47} وَإِذْ زَيْنٌ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالُهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِتْنَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ {48}

وتحدثنا السورة عن ردة فعل المنافقين بانتصار المسلمين على قريش الذي لم يخطر لهم على بال: {إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ {49}.

وتستمر الآيات لتتوعد المنافقين: {وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَنْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ {50} ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ {51} كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدٌ

الْعِقَابِ {52} ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ {53} كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ {54} إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ {55}

• إستراتيجية المستقبل

السورة تتحدث عن أن معركة بدر سببها تكرار قريش نقضها لمعاهدات سلام بينهم وبين المسلمين، وهو ما لا تذكره كتب السير والتفسير والحديث: {الَّذِينَ عَاهَدَتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْفُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ} {56} فَإِذَا تَفَفَّهْنَاهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرَّدَ بِهِمْ مَن خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ} {57}.

والسورة تأمر الرسول بالاتصال بقريش بعد بدر وترغيبهم في عقد سلام مرة أخرى: {وَأِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ} {58} وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبْقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ} {59}.

في ذات الوقت على المسلمين أن يكونوا بكامل جاهزيتهم للحرب، وأن يكون جيشهم كامل التسليح، لأن قريش لا يمكن أن يركن إليها وقد تنقض معاهدتها مع المسلمين، كما سبق وفعلت قبل بدر: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ} {60}.

فإن أبقت قريش على معاهدة السلام فعلى المسلمين احترامها وعدم التعرض للمشركين: {وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} {61}.

وإن تبين أنهم يريدون خداع المسلمين فليحذر المسلمون وليكونوا على أهبة الاستعداد دائماً، وليتذكروا أنه بسبب الدخول في الإسلام فقد انتلفت قلوب فئتين من المسلمين كان بينهما عداة تاريخي، وأصبحوا يشعرون فيما بينهم بروح الأخوة في الإسلام: {وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ} {62} وَالْأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} {63}. ((قد يكون المقصود هنا الأوس والخزرج، دون أن نملك أي دليل على هذا))

وتشير السورة إلى أنه كان هناك عدة معاهدات سلام بين المسلمين وقريش، وكانت قريش تنقض المعاهدات باستمرار. وبسبب عدم احترام قريش لتلك المعاهدات، حدثت معركة بدر، التي لم تكن لحرب قريش بسبب بقائهم على الكفر. وبعد المعركة يبدو أن هناك معاهدة سلام جديدة أبرمت

بين الرسول وقريش، وقد أمرت الآيات الرسول أن يتصل بقريش ويحذرهم من التفكير بنقض تلك المعاهدة، لأن نقضها يعني إعلان الحرب بين قريش والمسلمين.

وعلى المسلمين إعداد العدة للحرب بكل الوسائل، من عتاد ومدد وسلاح ونفقة، وإذا ما وجب القتال فعليهم أن يتعاملوا مع العدو في ميدان المعركة بكل قسوة وغلظة لكي يرهب الدخول معهم في حرب مستقبلاً. وفي ذلك حقن للدماء، فالمسلمين لا يبحثون عن القتال، ولكنه فرض عليهم واجبروا للدخول فيه. وإذا كان لابد من القتال فليكن عنيفا لدرجة سحق الخصم وإضعاف قوته، لئلا يعاود الحرب مرة أخرى.

وإذا أعلن العدو رغبته في السلم، فيجب على المسلمين القبول مع الحذر والحيطه، لأن قريش نقضت المعاهدات عدة مرات في السابق، ومع ذلك فدولة الإسلام تقبل السلم لأنها لا تبحث عن الحرب. وتوقيع معاهدة سلام مع قريش لا يعني أن يهمل شأن الجيش، بل يجب أن يكون هناك تسليح واستعداد كامل، طوال الوقت.

ثم تذكر السورة رسول الله أن يعتمد على الأتقياء من المسلمين في حربهم ضد العدو، ولو كانوا قلة، لأن غيرهم مثبطين ولو كثروا: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} {64} يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ} {65} الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ} {66}.

ولو تعرضوا لهجوم أو أجبروا على دخول قتال في أي وقت فعليهم الإقدام، دون اعتبار لكثرة العدو أو تفوقه عتاداً. لأن هذه العوامل لا يجب اعتبارها مبرراً لطلب الصلح مع عدو مهاجم أو التراجع عن القتال، مع جواز تأجيل الحرب، حتى تكتمل استعدادات المسلمين وعددهم.

والآيات تقول أنه حتى لو كان العدو عشرة أضعاف جيش المسلمين فهذا ليس سبباً لعدم دخول المسلمين القتال. فما بالك أن الله لا يطالب المسلمين بهذا ولكن بأن يقدموا على القتال متى كان العدو يفوقهم عدداً بنسبة الضعف أو أقل. وليس في الآيات ناسخ ومنسوخ كما يزعم الذين يريدون أن يتلاعبوا بكلام الله. ولكنه أسلوب القرآن المميز فقط.

ولنا وقفة مع الآيات: 67- 71 بعد الانتهاء من الحديث عن السورة في الأسفل.

وننتقل للآية 72 التي نتحدث عن أن هناك مسلمون بقوا في مكة ولم يهاجروا، وعليه فقد فرضت بعض الواجبات على دولة الإسلام لهم ولمن هم في وضع مشابه: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ

أَمْنُوا وَلَمْ يَهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِّنْ وَلَايَتِهِم مِّنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ {72}.

والآية تقول: أن موالاة المسلمين المهاجرين والمجاهدين تكون لإخوانهم ممن آواهم ونصرهم (الأنصار: أهل يثرب الأتقياء). أما من بقي في مكة من المسلمين وهو قادر على الخروج فليس له حقوق على دولة الإسلام.

وكل من يعيش من المسلمين في دولة معادية مختاراً فليس له حقوق على دولة الإسلام. لكن لو استنصر المسلم الذي يعيش في دولة معادية، دولة الإسلام، فعلى المسلمين نصرته. نصر من يعيش في دولة معادية من المسلمين، يكون بمعاونته على الهجرة لدولة الإسلام أو دولة صديقة يستطيع ممارسة شعائر دينه بحرية. فإن منعت الدولة الغير مسلمة من مغادرة أراضيها وجب على دولة الإسلام إخراجها بالقوة عن طريق إعلان الحرب على تلك الدولة. الفرد المسلم يوازي الكل، وعدم نصرة مسلم واحد مثل عدم نصرة الكل، وفيه فتنة له عن دينه، والفتنة عن الدين فساد عظيم أمام الله: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ} {73}.

الفرد المسلم تكفل دولة الإسلام حقوقه أينما عاش. تعقد معاهدات مع الدول الصديقة تكفل حرية العبادة وممارسة الشعائر للمسلمين بكل حرية. وتختتم السورة الحديث بالثناء على من هاجر وجاهد، وعلى من أسلم من يثرب وآوى المهاجرين ونصرهم: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ} {74}.

كما تشير إلى هجرة بعض مسلمي مكة بعد غزوة بدر، سواء بسبب خوفهم من انتقام قريش، أو نقتهم بمستقبل دولة الإسلام: {وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَرْحَامُ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} {75}.

● ولا بد من التطرق مرة أخرى لموقف المنافقين
لقد كان المنافقون يراهنون على نهاية الإسلام وسحق المسلمين في بدر، لكن نتيجة المعركة أصابتهم بخيبة أمل. فقد انتصر المسلمون واندحر مشركوا قريش، فعاد المنافقون للمدينة وهم غير مصدقين، وكانوا يتناجون فيما بينهم أن ما حدث هو مجرد صدفة، وأن المسلمين مقضي عليهم لا محالة، فلا يغرنهم انتصارهم الغير متوقع في بدر: {إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ عَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} {49}.

● والآن لنا وقفة أخرى هامة

ففي سورة محمد التي سبقت معركة بدر، فرض قانون حربي ينص على وجوب قتل أكبر عدد ممكن من المشركين، لأن قريش أكثر عدداً من المسلمين، وقتل أكبر عدد منهم إضعاف وإثخان لهم. ولا يؤسر منهم أحد إلا في معركة يكون المسلمون متفوقون عدداً وعتاداً: {فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثَخَّنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ} {4} محمد.

هذا القانون الإلهي عمل بعض المسلمين على مخالفته في معركة بدر، وهو ما أخبرتنا به الآيات التي أجلبنا الحديث عنها من سورة الأنفال، وهي: {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} {67} لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} {68} فَكُلُّوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالاً طَيِّباً وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} {69} يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّمَن فِي أَيْدِيكُمْ مِّنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} {70} وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} {71} الأنفال.

والذين أقدموا على مخالفة قانون سورة محمد، وأسروا مشركي قريش ولم يقتلوهم، هم من أسميناهم مسلمة قريش، الذين بدأوا موالة مشركي قريش قبل الهجرة، والذين كرهوا الدخول في حرب مع قريش بعد الهجرة، والذين حالوا إقناع الرسول بالدخول في محادثات مع قريش بدل الحرب، مع أن قريش هي من طردت المسلمين في مكة، وهي من لاحقتهم بعد هجرتهم للمدينة. والآيات تذكر بقانون سورة محمد " مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ". وتبين سبب إقدام مسلمة قريش على أسر أقاربهم، لأنهم يوالونهم ولا يريدون قتلهم " تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ". ولم يقع بهم عذاب من الله لأنه سبحانه يؤخرهم ليوم القيامة: " لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ".

ومسلمة قريش تابعوا مخالفاتهم للوحي، كما فعل بنو إسرائيل زمن موسى قبلهم. الذين طالبوا موسى باتخاذ أصنام، ثم اتخذوا العجل، ثم امتنعوا عن دخول القرية المقدسة.... الخ وقد قال الله فيهم: {أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} {75} البقرة.

وهو ما ينطبق على مسلمة قريش، الذين ستستمر مخالفاتهم للوحي وسيتسببون بمشاكل للمسلمين ودولته طوال عصر الرسول وبعد موته.

ثم نزلت سورة الحديد

وهي السورة الثانية من سور هذه المرحلة الواقعة بين بدر وأحد، وتتطرق لمواضيع الساعة، وأهمها هو الحث على الإنفاق لتسليح الجيش لمعركة أحد القادمة مع قريش، وتحدث عن امتناع ظاهر عن الإنفاق بين المسلمين، أحد أسبابه إصابة المدينة بالقحط لاحتباس المطر.

وتفتتح السورة بتسبيح الله وبيان قدرته فيما يظهر من خلقه: سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ {1} لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {2} هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ {3} هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ {4} لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ {5} يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ {6}.

ثم تبدأ السورة بالحديث عما يجري، والبداية مع الحث على الإنفاق وبيان ردة فعل المسلمين على ذلك:

آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ {7} وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لَتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ {8} هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَارُؤُوفٌ رَحِيمٌ {9}.

الآية: 7 تؤكد أن من لديه المال ليس مالكا له ينفقه كيفما يشاء، ولكن المال لله (لكل الناس) وهو مؤتمن عليه فقط يأخذ منه بحق وينفقه بحق، ومن يخالف ذلك فهو سفيه يجب الحرج عليه. وهو ما أكدته سور سابقة منها: {وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا} {5} النساء.

وتسأل السورة من لا ينفق من المسلمين: وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاتُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتِلْ أُولَئِكَ أَكْثَرُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتِلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا عَمَلُونَ خَبِيرٌ {10}.

فهناك مسلمون لم ينفقوا قبل بدر لتجهيز الجيش، لكنهم أنفقوا بعد المعركة وسيقاتلون. وهؤلاء وإن كان أجرهم عند الله أقل ممن أنفق قبل الفتح (بدر) وقاتل.

والسورة تظهر أن الصورة الناصعة عن يسمون "الصحابه" في كتب السير والتاريخ، لا وجود لها على أرض الواقع، فنحن نتعامل مع أشخاص أبعد ما يكونوا عن الإصغاء للرسول وإتباع أوامر القرآن. ولعل الإنفاق من أهم الأوامر القرآنية التي لم تجد لها آذان صاغية بين كثير من

المسلمين زمن الرسول، قد يكون لأنها تدعوا الناس لبذل أموالهم للغير دون مقابل، وهو ما لم يعتادوه في ثقافتهم الماضية. والمال زينة الحياة الدنيا، ويصعب على النفس البشرية التخلي عنه طواعية. لذا جاءت سورة الحديد - كسور كثيرة غيرها - تحت المسلمين على الإنفاق وتؤكد لهم أنه لا إيمان بدون إنفاق، وأن الإنفاق قرض لله سيرده للمؤمن بفوائد: {مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ} {11} يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّتُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} {12}.

وتقول السورة أن المال الذي بين يدي الناس هو أمانة استخلفهم الله عليها ليرعوها حق رعايتها وينفقوها بما يجب أن تنفق فيه، وأفضل إنفاق في تلك لفترة، هو ما يكون في سبيل الله، لأن الأجواء أجواء حرب: {آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ} {7}.

وتخاطب الآيات المسلمين قائلة: إن دخولكم الإسلام يعني توقيع ميثاق وعهد مع الله، يتمثل بطاعة كل أوامره والانتفاء عن كل ما نهى عنه. فكيف تريدون أن تكونوا من المؤمنين وأنتم لا تطيعون أمر الله: {وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لَثُومُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} {8} هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَأَرْؤُوفٌ رَحِيمٌ} {9}.

وبدون الموارد المالية لا يمكن تجهيز وتسليح الجيش. لكن كل هذه النداءات القرآنية، وهذه الحقائق على أرض الواقع لم تؤثر في بعض من أعلن إسلامه: {وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتِلْ أُولَئِكَ أَكْثَرُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتِلُوا وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} {10}.

وتبين الآية أن المسلمين كانوا منقسمين حيال قتال العدو والإنفاق على الحرب، إلى عدة فرق: أناس أنفقوا قبل الفتح (غزوة بدر) وقاتلوا، وسينفقون ويقاتلون على الدوام، وهؤلاء هم المتقين حقاً.

أناس لم ينفقوا مع قدرتهم على الإنفاق، واشتركوا في القتال.

أناس لم ينفقوا يوم بدر ولم يقاتلوا.

أناس أنفقوا بعد بدر ومستعدين للقتال والإنفاق مستقبلاً، وهؤلاء عسى الله أن يتوب عليهم.

ونحن نعرف أن بعض من امتنع عن الإنفاق كانوا من مسلمة قريش الذين يوالون أقاربهم المشركين واستمروا يقيمون علاقات ودية معهم، وحرصوا على أسرهم يوم بدر، حفاظاً عليهم

من القتل. كما امتنع عن الإنفاق بعض من أعلن إسلامه من يثرب، لكنه لم يؤمن، وهؤلاء إما من الأعراب حول يثرب أو من المنافقين من داخلها (مسلمة يثرب)، وهم المعنيون في قوله تعالى: {يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسِبْ مِنْ ثَوْرِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ} {13} يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاء أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ} {14} فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} {15}.

فالمنافقون في المدينة كانوا ينتسبون للإسلام ويقومون بالفرائض لكنهم لا ينفقون. لأنهم لم يؤمنوا بالفعل بحقيقة الدين، وكانوا يتربصون بالمسلمين الدوائر " وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ".

والآيات تكرر تحذير المسلمين من الامتناع عن الإنفاق حتى لا تتشابه أوضاعهم مع أوضاع أهل الكتاب: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ} {16}.

هكذا كان الوضع بوجه عام في الفترة بين بدر وأحد، وصاحب ذلك احتباس المطر، والقحط أصاب المدينة بعد بدر، كما تروي لنا السورة:

فإذا كانت أحد وقعت في شهر شوال من السنة الثالثة للهجرة – كما في كتب السير والتاريخ - فهو يوافق شهر مارس لعام 625 جريجوري، أي في فصل الربيع. والآية السابقة تشير إلى أن المطر قد شح في شتاء وربيع ذلك العام، وأصيبت البلاد بالقحط. ويثرب كمعظم مناطق شبه الجزيرة العربية تنزل فيها الأمطار القليلة غير المنتظمة في الشتاء والربيع، مما يؤدي إلى نمو الأعشاب في فصل الربيع. ونمو الأعشاب والحشائش يعني أعلاف للماشية، وكلاً يؤدي إلى وفرة الحليب، الذي يمكن بيعه، ومن الحليب يصنع الكثير من المنتجات التي تعتبر مصدر دخل، وإذا ما توفر الحليب كثرت الولادات وقلة الوفيات بين الماشية، وارتفعت أسعارها.

ولأن الأمطار ليست منتظمة، فقد تشح في بعض السنوات مما يؤدي إلى عدم نمو الحشائش التي تقتات عليها الماشية وبالتالي تصاب بالهزال وتندنى أسعارها ويقل إنتاج الحليب وتموت صغارها، ويتضرر أصحابها. وهذا ما حدث في الفترة التي تلت غزوة بدر. مما أدى ببعض أصحاب المواشي من مسلمي يثرب أن يتباطئوا في الإنفاق وينضموا للقائمة السابقة للممتنعين. فجاءت آيات سورة الحديد تخاطب هؤلاء: {اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} {17}.

وإن احتبس المطر هذا العام فقد يأتي في عام قادم، وتحبى الأرض بعد موتها، والخسارة المادية لهذا العام قد تعوض في عام قادم، لكن الامتناع عن الإنفاق ذنب لا يغفره إنفاق العام القادم. والإنفاق تجارة رابحة مع الله مضمونة لا تعتمد على المطر وليس لها موسم: {إِنَّ الْمُصَدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُّضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ} {18} وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ} {19}.

وإذا كنتم تباطأتم عن الإنفاق خوف الفاقة، فتذكروا أن الدنيا كلها سرعان ما تزول، مثلما زالت حشائش الأعوام السابقة التي نمت بفعل المطر، فكيف تحرصون على الزائل، بينما لو أنفقتم فسيكتب لكم أجر ومكسب دائم: {اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ} {20} سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} {21}.

ومن الواضح أن المسلمين خسروا محاصيلهم نتيجة القحط، وهي مصيبة حلت بهم بالمقاييس الدنيوية. لكن عليهم أن يتذكروا أن احتباس المطر وهطوله نتيجة لقوانين وضعها الله في الكون. أي أن المطر يتوقف بإذن الله (أي لعدم توفر الظروف المناسبة لهطوله) وينزل بإذن الله (أي بتوفر الظروف المناسبة لهطوله).

فإذا عرف المسلم ذلك هانت عليه مصيبة فقدان المحصول واحتسب عند الله ولم يتوقف عن الإنفاق. بل أنفق لكي يزرع له محاصيل ثابتة يوم القيامة.

وإذا ما عرف المؤمن أن كل مباحج الدنيا (الأموال والأولاد) كزرع سرعان ما يصفر وتذروه الرياح، فلن يتباهى بما يملك ولن يكون زيادة ماله مدعاة للفخر، ولا نقصه مدعاة للحسرة: {مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} {22} لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ} {23} الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ} {24}.

والدولة في حالة حرب مع العدو الذي قد يهاجمها في أي لحظة، ويجب أن يكون المسلمون مستعدون له. ولا يمكن للمسلمين مواجهة العدو بدون جيش جاهز التسليح، ولا يمكن تجهيز الجيش بدون إنفاق، لأن الإنفاق يؤمن المال اللازم لشراء السلاح من سيوف ودروع ورماح. والله جل جلاله أرسل الرسل بالحق لإقامة حياة كريمة للناس، كما أنزل الحديد الذي يصنع منه

السلاح وأدوات كثيرة يستخدمها الناس في الحرب والسلام: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ {25}.

وفي تلك الظروف الحرجة كان أهل الكتاب يحاولون نشر دعاية بين المسلمين أن الإنفاق يؤدي لضياع المال بلا مقابل، وأن مسلمي يثرب لولا ما يتلقونه من أجور نظير عملهم لديهم لأصابتهم الفاقة. فجاء رد القرآن بأن التكافل بين المسلمين كفيل بغنى المسلمين في الدنيا والآخرة دون الحاجة لأجر أهل الكتاب أو عونهم: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ {28} لِنَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ {29}.

ثم نزلت سورة التغابن التي تكرر الحديث عما سبق وتطرقت له سورة الحديد، وهو الحث على الإنفاق الذي أحجم عنه كثير من المسلمين، ومحاولة التخفيف عن الناس مما أصابهم من قحط وأن هذا ليس سبباً للإحجام عن الإنفاق.

وتفتتح التغابن: {يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {1} هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ {2} خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ {3} يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ {4}.

افتتاح مشابه لافتتاح سورة الحديد السابقة، ثم تتوجه السورة لمخاطبة قريش، وتبشر المؤمن بالجنة والكافر بالنار: أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ {5} ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشِّرْ يَهُودُنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ {6} زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَّنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّيُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ {7} فَاْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ {8} يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ {9} وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ {10}.

ثم تنتقل السورة للحديث عن نفس موضوع القحط الذي بدأته سورة الحديد السابقة. مكررة الحديث عن امتناع بعض مسلمي يثرب من الإنفاق بسبب شح المطر ونقص الموارد، وتقول إن ما أصابهم فهو بأمر من الله، لأن المطر ينزل بناءً على تضافر ظروف مناخية ملائمة، قد لا

تتوفر في مناخ الصحراء في بعض السنوات، كما حدث في يثرب تلك السنة، وتسبب بضيق العيش. لكن هذا يجب ألا يثني الناس عن الإنفاق، لأن دولة الإسلام تعتمد عليه في بقائها وفي تسليح جيشها: {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} {11} وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاءُ الْمُبِينُ} {12} اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} {13}.

وتبين السورة أن تأخر بعض مسلمي يثرب عن الإنفاق يعود لاحتجاج أبنائهم وأزواجهم، الذين يرون أن ميزانيتهم مجهدة من شح الموارد لتلك السنة، ولو أنفقوا فسيكون وضعهم المادي أصعب: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَنَّفُوا وَتَعَفَّرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} {14} إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ} {15} فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفَقُوا خَيْرًا لَأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقْ شَحًّا نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} {16} إِنْ تَقَرَّضُوا لِلَّهِ قَرْضًا حَسَنًا يَضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ} {17} عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} {18}.

وهذه الحديث سبق وذكر في الآيات (16-24) من سورة الحديد.

حيث تخاطب سورة الحديد المؤمنين متسائلة عن عدم استجابتهم لدعوة الوحي لهم (بالإنفاق كما سيتبين)، وتحذرهم من أن يشابهوا اليهود (في عدم الإنفاق): {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ} {16}.

وتؤكد لهم أن المطر يأتي بمشيئة الله: {اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} {17}.

وأن الإنفاق قرض حسن يضاعفه الله في الآخرة: {إِنَّ الْمُسَدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضَاعِفْ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ} {18} وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّدِيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ} {19}.

وأن التفاخر بالأموال والأولاد من العبث، لأنه سريع الزوال: {اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيْجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ} {20}.

ولن يبق للآخرة إلا ما يقدمه المرء من إنفاق: {سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا
كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو
الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} {21}.

وما يؤكد ما جاء في الآية (17) من أن المصيبة كانت في المنتجات الزراعية بسبب شح المطر،
هو قوله تعالى: {مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا
إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} {22} لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ
مُخْتَالٍ فَخُورٍ} {23} الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ
الْحَمِيدُ} {24}

فالمؤمن لا يأسى على ما فاتته (من محصول)، ولا يفرح بما يحصل عليه من مال عند توفر
الغيث. ولا يتفاخر بها ولا يصيبه منها الكبر والخيلاء. فإن فقدوها صبر، وإن حصل عليها أنفق
منها في سبيل الله.

ونعود لآيات سورة التغابن التي تتحدث عن نفس الموضوع، قائلة: {مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ إِلَّا
بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} {11}.

فالمؤمن يجب ألا يحزن لخسارة المحصول، أو أي خسارة دنيوية أخرى.

{وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ} {12} {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} {13}.

ولا يمنعكم توفير مطالب الأزواج والأولاد عن طاعة الله: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ
وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} {14} إِنَّمَا
أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ} {15}.

ويجب ألا يكون الشح في الموارد سبب في عصيان أمر الله والرسول بالامتناع عن الإنفاق.
وتواصل الآيات: {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ وَمَن يُوقْ شَحًّا
نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} {16} {إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُّضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ
حَلِيمٌ} {17} {عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} {18}

أمره المسلمين بالإنفاق والسمع والطاعة لأمر الله ورسوله. ففي الإنفاق كل الخير "وَأَسْمَعُوا
وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ وَمَن يُوقْ شَحًّا نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ".

مع تكرار التأكيد على أن الإنفاق قرض حسن يضاعف الله لصاحبه الأجر يوم القيامة في حياة
أبدية لا تنتهي كالدينا.

والآية (14) تؤكد أن الأزواج والأولاد إذا كانوا يحرصونكم على عدم الإنفاق، بطريق مباشر أو غير مباشر، فهم أعداء لكم وليسوا ناصحين، لأن عدم الإنفاق يؤدي للنار. فلا تطيعوهم وفي نفس الوقت لا تعاقبوهم أو تغضبوا عليهم بل اعفوا واصفحوا وتفهموا مشاعرهم من الخوف من العوز.

أما الآية (15) فتؤكد أن التعلق بالأولاد وتلبية مطالبهم، وصعوبة التفريط بالمال من طباع البشر التي يجب أن يعود المسلم نفسه على ألا تقتنه عن الإنفاق: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} {14} إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ} {15}.

وننتقل إلى سورة الطلاق

والموضوع الرئيسي الذي نتحدث عنه السورة هو الطلاق كما هو اسمها، وهو استمرار لما ورد بداية في سورة البقرة: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا} {1} فَإِذَا بَلَغَ أَجْلُهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوِي عَدْلٍ مِّنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا} {2} وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا} {3} وَاللَّائِي يَتُسَنَّ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِّسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا} {4} ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا} {5} أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأَمِّرُوا بِنِّبْنِكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتَرْضِعْ لَهُ أُخْرَى} {6} لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا} {7}.

والآيات الأخيرة في السورة تحذر المسلمين من عصيان كلام الله، حتى لا يشابهوا الكفار، ويكون مأواهم النار مثلهم: {وَكَايْنِ مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكَرًا} {8} فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا} {9} أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا} {10} رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ

لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِنِ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقاً {11} اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً {12}.

وسوف نفرد موضوعاً خاصاً للطلاق بعد رمضان، كانت النية وضعه هنا، لكن لأننا لو وضعناه هنا، فعلينا أن نتوسع في كل موضوع ذكره القرآن، وهذا سيطيل القراءة على القراء وسيحول مشروعا من تدبر للقرآن إلى تأليف موسوعة للقرآن، وهو ما نتمنى أن ننجزه يوماً بعون الله. ونكون قد انتهينا من برنامجنا لهذا اليوم، وإلى اللقاء مع اليوم رقم 18 إن شاء الله. والسلام عليكم